فاقد الذاكرة.. يتذكَّر!!

فقد ذاكرته وهويَّته واسمه!!

اتخذ لنفسه محلًا للإقامة في أطراف المدينة بالقرب من مساكن المهندسين، وهو عبارة عن عشة من الخشب والصفيح، تتوسطها من الجهة البحرية نافذة صغيرة تطل على المزارع في نهاية العمارات، وتحتوي على أدوات معينة بدائية كأنها من العصر الحجري!

كان الصبيان والبنات من أهل الحي والأحياء المجاورة في بداية معرفتهم به يهابونه ويخافونه، ويرتعدون بمجرد رؤيته!

عملاق.. طويل.. عريض.. أطلق العنان للحيته وشعره وشاربه الذي يقف عليه صقر!

أصفر الوجه ذابل السحنة.. تائه النظرات، جاحظ العينين اللتين غالبًا ما تكونا حمراوين، ولا تركزان على شيء!

أما جلبابه فقد تراهن الأولاد على تحديد لونه الأصلي، فلم يفُز أحدهم بالرهان لكثرة الأوساخ المتراكمة عليه!

ومع مرور الأيام أحبه الأولاد وألفوه، وأصبحوا أصدقاء حميمين له.

ولذلك فقد اتفقوا على العطف عليه، والإحسان إليه.. فراحوا يفرقون عليه ما لذ وطاب من صنوف الطعام عندما يحل موعد كل وجبة، وكانوا يتسابقون على ذلك، ومن جهة الآباء والأمهات فكانوا يسعدون بذلك جدًا ويباركونه، ويشجعون الأولاد والبنات على تقديم المزيد، حتي انطبق عليه المثل الذي يقول « للشحات نصف البلد!».

ومن كثرة خيرات الله التي تنهال عليه اضطر أن يقوم بإطعام قطط وكلاب الحي!

وفي نهاية الأكل يشكر الرب «رازق الدودة في الحجر!»، ويُقَبّل يديه ويرفعهما إلى فوق ويدعو للأولاد في صمت.

اعتادوا ممارسة رياضتهم المفضلة في قيادة الدرّاجات بالقرب منه، مما أتاح لهم الفرصة في مراقبته وهو داخل العشة في الذهاب والإياب، فكان فمه الكبير الواسع لا يخلو من الطعام والمضغ وكأنه يجتر!

الشيء الوحيد الذي كان يسبب له حرجًا بالغًا ويندى له جبينه هو مراقبة الأولاد له عند قضاء حاجته خلف العشة!

يا له من عملاق عجوز، مخيف، مرعب، وسبحان الله الذي حبب فيه الأطفال

ولولا ترهل عضلاته وإعياؤه الواضح على قسمات وجهه لكان بمقدوره أن يحرك إحدى العمارات المجاورة بسكانها من مكانها!!

وكان بين الفينة والأخرى يمرر يده الضخمة على شعر رأسه المشعث الملبد بالتراب، والذي يغطي جبينه وأذنيه ووجنتيه، فلم يظهر من وجهه إلا عينان تبرقان وأنف طويل، وشفتان غليظتان لا تكفان عن مضغ الطعام أو التمتمة!!

اقترح بعضهم عمل مفاجأة لعم (صابر) كما يسمونه، حيث إن أحدًا لم يعرف اسمه الحقيقي..

وهذه المفاجأة المقترحة هي المساهمة في شراء كسوة له، نظرًا لسوء الحالة التي وصل إليها هندامه، وسرعان ما وصلت هذه الفكرة إلى الآباء فلاقت تأييدًا جماعيًا منهم، ورحبوا بها بشدة، مشجعين بنيهم وبناتهم على الاستمرار في عمل الخير والعطف والإحسان على المساكين والفقراء وذوي الحاجة... وفعلًا تم التنفيذ بمعرفة لجنة مكوَّنة من بعض الأبناء والآباء!

وقبل تقديم الهدية إلى الرجل طرح أحد الأولاد سؤالًا وجيهًا!

- إزاي عم صابر هيلبس الهدوم الجديدة دي وجسمه عليه كل

التراب دا؟

دا غير الريحة اللي ما يتحملهاش بني آدم؟

والحق أن هذا السؤال تسبَّب في خلق مشكلة جديدة في نظر أطفال في مثل سنهم، فصاحوا جميعًا في صوت واحد:

- لازم يستحمى .. لازم يستحمى.

وانتقلت هذه الفكرة بسرعة البرق أيضًا إلى الآباء، ومنهم عم (خليل) البواب الرجل الصعيدي الشهم! الذي رحَّب بالفكرة وتعهَّد بتنفيذها..

بطريقته الخاصة بدأ عم (خليل) في التنفيذ، وإمعانًا في أداء مهمته على أكمل وجه، وإرضاءً لضميره وشهامته قرر أن يقص للرجل شعره، ويحلق له ذقنه ويشذب شاربه..

وعلى الفور تم استدعاء الأسطى (خميس) الحلاق الذي أتى متأبطًا حقيبته التي عفا عليها الزمن، وتوجَّه بصحبة فريق من الأطفال إلى عشة عم (صابر)، وما إن لمحهم حتى ارتجف بدنه الضخم، وبدا شبح ابتسامة على شفتيه، مما يوحي بأنه أدرك الغرض من الزيارة!

قام الأسطى (خميس) بأداء دوره بهمة ونشاط لفتا أنظار

الحاضرين، فأُعجب به الأطفال أيما إعجاب، ومنحوه أجرًا سخيًّا، انصرف على إثره مسرورًا مبتسمًا بعد أن ختم عمله –وكان لايزال يتحسس ذقن عم (صابر) للتأكد من نعومتها– بكلمة «نعيمًا، ثم رددها من بعده الأطفال، أما عم (خليل) فقد قال له:

- نعيمًا يا عريس!!

وغمز بعينه العمشاء للأسطى (خميس) أن يسبقه إلى المكان المتفق عليه! وهو عمارة تحت التشطيب يعمل بها عم (خليل) وزوجته وهي ليست بعيدة عن عشة عم (صابر).

وفي تلك اللحظة أتى أحد الصبية ومعه أدوات الحمَّام اللازمة، وتوجَّه الجميع إلى العمارة، وكانت زوجة عم خليل قد قامت بدورها هي الأخرى على ما يرام فأحضرت (بستلة) كبيرة مملوءة بالماء المغلي! ووضعتها في الحمَّام (مشروع الحمَّام)، بالإضافة إلى الأدوات اللازمة، وارتسمت فرحة غير عادية على قسمات عم (صابر) وهم يأخذونه إلى الحمَّام في موكب مدهش!

والحق أن عم (خليل) والأسطى (خميس) قاما بالمهمة «بحرفنة وصنعة» أثارت إعجاب الأولاد.. أما عن الرجل فكان يضحك ويقهقه كما لم يضحك في حياته من قبل، وكانت السعادة

(تنط) من عينيه! ذلك دون أن ينطق بكلمة واحدة!

ألبسوه ملابسه الجديدة وسط زغاريد بعض النسوة اللاتي حضرن خصيصًا للفرجة عليه، بينما الأولاد يصفقون ويقفزون إلى أعلى في سعادة غامرة.

مشّط له الأسطى (خميس) شعره وشاربه، ولم يبخل عليه ببعض قطرات من قارورة طيب عتيقة بحث عنها في حقيبته حتى وجدها بعد عناء!

فبدا الرجل وكأنه عريسٌ (بحق وحقيقي)!!

زفّوه حتى باب العشة، وكان الظلام قد أوشك فأضاءت المساكن أنوارها، وشاهد الآباء والأمهات والإخوة والأخوات الموكب من الشرفات والنوافذ فاكتملت فرحتهم وسعادتهم..

ومن قبيل المزاح نزل أحد الآباء ولحق بالموكب على باب العشة واقترب منه وشرع في عمل (حديث صحفي) معه لعل وعسى يكشف عن شيء من غموضه وسبب صمته الرهيب! سأله:

- إمتي وفين كان أخر مرة استحميت فيها يا عم صابر؟

وجاءت الإجابة بالصمت ونظرات الدهشة..

كرر السؤال مرة ثانية بنبرة استعطاف..

- إمتي وفين كان أخر مرة استحميت فيها يا عم صابر؟

وفي ذهول ودهشة الجمع.. خرج الرجل من صمته!!

ونطق لأول مرة منذ سنوات.. قال بصوت رخيم:

- أولًا أنا اسمي (هيبة) مش صابر!!

واستطرد بعد أن تنفس الصعداء وازدرد ريقه:

- جبتم منين اسم (صابر) اللي بتنادوني بيه ده؟

وعندما وصل ذهول الواقفين إلى قمته، ولم يحصل على إجابة سؤاله، أكد وهو يضغط على الحروف:

- أنا اسمي (هيبة الفالح تيجاني)! من أعيان محافظة الفيوم، وكنت عضو بمجلس الشعب عن دايرة من دوايرها في يوم من الأيام!!

ولاحظ الجميع أنه كان يتكلم بلغة سليمة، ولكنه كان يصمت بين الكلمة والأخرى بعض الوقت..

وكرر له السؤال للمرة الثالثة:

- متى وأين كان أخر حمّام لك يا عم... إمتي وفين كان أخر

مرة استحميت فيها يا عم صا.. هيبة؟!

- أخر مرة استحميت فيها كانت في قصر أبويا شيخ العرب (الفالح تيجاني) في قرية من قرى الفيوم ليلة زفافي!

فانتبه الحاضرون أكثر وكأنهم في حلم..

- وإمتى حصل دا؟ وفين إتجوزت؟

فأجاب بحسرة بدت واضحة على قسماته:

- للأسف ماتمتش الجوازة.. أخدوها مني.. خطفوها مني..!

وبصوت واحد سألوه:

- مين هما يا عم هيبة؟

علا صوته وتشنج:

- ولاد الحرام.. الله يخرب بيوتهم زي ما خربوا بيتي! منهم لله.

وازداد تشنجه عندما سأله أحد الأطفال:

- والعروسة كان اسمها إيه يا عم هيبة؟

لم يرد عليه وعاد إلى صمته.. وسار حتى اقترب من عشته فتركوه وعادوا أدراجهم والدهشة لم تفارقهم..

في صباح اليوم التالي استيقظ الأطفال في ساعة مبكرة، وكانت فرحتهم لا تُقدّر.. لأن عم (هيبة) تكلم وسوف يتكلم معهم.. سوف يرونه في ملابسه الجديدة الزاهية الألوان ونعله الجديد.. فالكل على موعد معه..

نفخوا بالوناتهم وزيَّنوا دراجاتهم.. ولبسوا جديدهم فاليوم يوم عُرس عم (هيبة).. محاولين بكل الطرق طرد اسمه القديم من ذاكرتهم.

إن الرجل بلا شك سوف يفرح بهم أيضًا، ولن يعد يخجل منهم أبدًا بعد اليوم

توجهوا إلى عشته.. لم يجدوه قابعًا أمامهم كالمعتاد.

تساءلوا: راح فين؟ لازم بيقضي حاجته ورا العشة.. انتظروا قليلًا فلم يعُد.. بحثوا عنه حول العشة فلم يعثروا له على أثر!

ليس من عادته أن يظل نائمًا حتي هذه الساعة.

وأخذت فرحتهم وسعادتهم تهرب من وجوههم تدريجيًّا.

لقد بدأوا يشعرون بخسارة فادحة لم تصادفهم من قبل.

أين ذهب الرجل؟.. لقد كان معهم بالأمس، وكان يقاسمهم السعادة والفرحة.

وخيم الحزن على الحي بأجمعه..

وظلوا يبحثون عن الرجل ثلاثة أيام بلياليها، ولم يعثروا له على أثر حتى اليوم!